اليزيدية : ذلك الدين المغبون

obeikan.com

obeikan.com

أو هل لنا أن نقول إنها قاعة مرايا، تعكس كل مرآة مقعرة أو محدبة منها في فضائها الباهت، ليس فقط جسمًا حقيقيًا، بل كذلك ظلال هذا الجسم في المرايا الأخرى؛ التي تكرِّر ذات الانعكاسات: حتى يمتلئ اللامحدود بأشكال معتمة وأكثر عتمة؛ فلا يتشكل مشهد واضح حولنا، سوى فوضى عصية على الفهم.

(توماس كارلايل)

إنما الحلم لواحد، ولكن تتمايز التفسيرات.

(صائب)

• • • • •

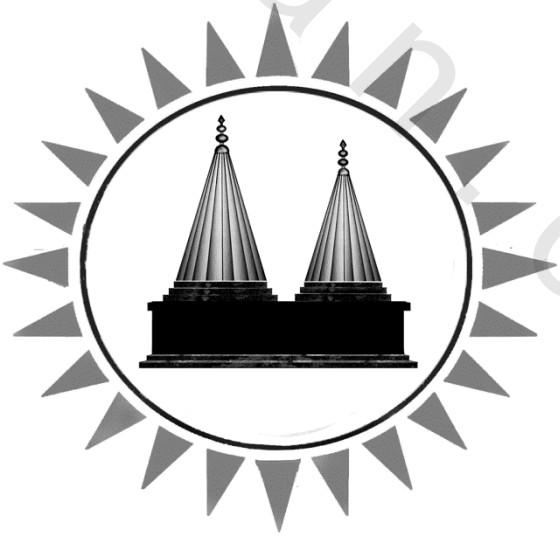

obeikam.com

حين حاول أحد الأصدقاء أن يقدِّم لكاتب هذه السطور وصفًا للدين اليزيدي، وبهدف تحقيق عنصر المفاجأة والتشويق بمعلومات غريبة أو غير شائعة حول الفلسفات والعبادات والأديان المغمورة، عمد صاحبي إلى التوقف عند "اليزيدية" لعرض فكرة - وإن كانت مبتسرة وسريعة - عنها على نحو يترك انطباعًا قويًا في النفس على مدى زمني طويل. وحسب وصفه، المتوثب لحث حب الإطلاع والمتابعة لدى مستمعه، بدت اليزيدية وكأنها دين "النقائض"، أو قل: "مضاد الدين" الذي تمَّ تشويهه باعتباره يوصي باحتضان أو فعل كل ما هو مناقض للشائع مما توصي به الأديان الأخرى كالإسلام والمسيحية واليهودية، من بين سواها من الأديان الكبرى. وبطبيعة الحال، ظهر هذا الوصف، كما أُريد له، عجائبيًا بالنسبة للمستمع آنذاك، أي في ستينيات القرن الماضي، الأمر الذي يعني أنه قد حقَّق المرجو له من حث لحب الإطلاع والبحث على سبيل زيادة وتعزيز المعرفة باليزيديين الذين يتركزون سكانيًا في قرى وبلدات منتشرة حوالي مدينة الموصل شمالي العراق، إضافة إلى جماعات متناثرة في دول أخرى كسوريا وتركيا. مذاك، وكاتب هذه الأسطر لا يضيع فرصة لمعرفة جديدة أو إضافية عن هذا الدين وعن معتنقيه.

والحق، فإن أكثر ما قد أثار اهتمامي في تلخيص صاحبي هذا هو ما كان قد أُشيع بين البسطاء من العامة بأنه دين يوصي بعبادة الشيطان بدلاً عن عبادة الله جل وعلا. وبأنه دين يوصي بعدم العناية بالنظافة الفردية والبيئية، مركزًا على أن اليزيدي يكون

عدائيًا بطبيعته حيال جيرانه من أتباع الأديان الأخرى، بدلاً عن الميل إلى التعايش معهم على نحو سلمي وتعاوني؛ وأن الرجل اليزيدي، إن أراد الزواج، فإنه يعمد إلى خطف العذراء التي يريد الاقتران بها كي يتزوجها دون تجشم عناء الحصول على موافقتها أو موافقة عائلتها. وعلى نحو معاكس لجميع الشرائع المعروفة، يُشاع بأن الفرد اليزيدي يتجنب التعلم والمعرفة ويبتعد عن المدارس والدراسة. خلاصة الوصف هي أن المؤمن اليزيدي يفعل كل ما هو نقيض لما توصي به الأديان الأخرى من فضائل!. لم يتعمد محدثي تشويه اليزيديين قط، وإنما كان، في حقيقة الحال، يعكس الشائع من إساءات فهم وتنميطات شاعت بين الكثير من الناس حول اليزيديين عبر مناطق سكناهم.

ولا يقل غرابة عمَّا مرَّ ذكره هو افتراض محدثي حول مؤسس هذا التقليد الديني، لأنه حسب هذه المعطيات والمتناقضات والمعاكسات، لا يمكن إلا أن يكون دجالاً ذا مواهب استثنائية، فربما كان هو رجل من الظرفاء الذين يميلون إلى الفكاهة والمزاح، بدليل

حرصه حسب الوصف المتعسف أعلاه، على التبشير ليس بدين، وإنما بنقيض الدين، أي بمضاده، مستثمرًا بساطة وسذاجة الجماعات التي التقاها ثم استقر بين ظهرانيها، بعد أن هاجر من موطنه الأصل، بلاد الشام. كان اسم هذا الرجل الذي "ابتكر" "دين النقائض" هذا، هو "الشيخ عادي بن مسافر". وكان الافتراض الخاطئ الذي شاع بين البعض هو أن هذا الشيخ إنما كان يرنو إلى كشف مواضع ضعف البشر، فابتكر هذا الدين كي يبرهن للعالم مديات لا معقولية الإنسان وغرائب سلوكياته الاجتماعية، مبرهنًا، في الوقت ذاته، على إمكانية قيادة الإنسان من قِبَل الدجالين والمشعوذين عندما يطغى الجهل على الإنسان.

لقد دلَّتْ متابعتي ودراستي لهذا الدين على أن محدثي لم يكن على معرفة كافية بهذا الدين وإنما كان، هو الآخر، ضحية ما شاع بين السُكَّان المحليين من مفاهيم خاطئة وتنميطات حول اليزيديين وديانتهم ومعتقداتهم الروحية. وقد بقي الشائع بين العامة مشحونًا بالتحامل والتعالي على هؤلاء اليزيديين المسالمين، ذلك أن الافتراضات التي مرَّ ذكرها لم تكن صحيحة قط. هي افتراضات غير دقيقة ولا مبرهنة، لأن الدين اليزيدي لم يزل محاطًا بجدران سميكة من الغموض الذي لا ينجلي بالبساطة التي قد يتوقعها المرء، خاصة من قِبَل المسلمين والمسيحيين الذين يحيطون، سُكانيًا، باليزيديين، ويلاحظون عاداتهم وتقاليدهم وعباداتهم بشيء من الدهشة والاستغراب، فيعدونها من وحي عوالم اللامعقول، أي من

خارج حدود المألوف عندهم، على الرغم من أن هؤلاء من جيران اليزيديين من أتباع الأديان الأخرى إنما يحيون معهم في حقولهم وبلداتهم ويشاركونهم الأسواق والأماكن العامة وسواها من أنشطة الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

لقد شاعت بين العامة "خُرافة" خطيرة أخرى حول اليزيديين، تفيد بأن دينهم يحلل لليزيدي قتل من هو ليس من ملته، أي أنه يستبيح دم المسلم أو المسيحي، إذا ما ظفر به وتمكن منه، خاصة عندما يتعرض هذا الفرد بالإساءة لدين اليزيدي أو بالإهانة أو التندر به شخصيًا.

يقدِّم اليزيديون، على مسرح الحياة اليومية العامة، صورة معاكسة لهذه الأفكار الشائعة والخاطئة، ذلك أنهم أناسٌ مسالمون يحبون التعاون والتعايش مع سواهم من أتباع الأديان الأخرى، بالرغم من توكيدهم على تقديم أنفسهم كجماعة دينية وإثنية مختلفة عن عامة السكان، أي أنهم يرنون إلى أن يعدوا "أمة" يزيدية مستقلة، كما هي عليه حال المندائيين وأهل الحق الذين بحثناهم في الفصلين السابقين. وهذه إشكالية معقدة في العراق المعاصر، بقدر تعلق الأمر بالإقليم الكردي منه لأن حدوده ومكوناته لم تحصر بدقة وعلى نحو رسمي متفق عليه ما بين الحكومة المركزية وحكومة إقليم كردستان العراق ذات الحكم الذاتي. لذا يتنازع كل من العرب والأكراد على اليزيديين، فالعرب يدّعون أن اليزيديين عرب؛ بينما يؤكد الأكراد أنهم كرد، برغم حقيقة أنهم يتكلمون الكردية

وينحدرون، حسب معطيات البحث العلمي في أصولهم، من جذور إثنية إيرانية/هندية[١]. إن المتوقع هو أن يتواصل النزاع على تبعية اليزيديين على نحو لا نهائي بسبب أصولهم الإثنية المختلطة وبسبب غياب تاريخ مسجل لهم. والأهم مما تقدم ذكره تبرز حقيقة أن دينهم إنما "هو خليط ديني توفيقي تركيبي معقد، يضم عناصرًا يُعتقد أنها كردية قديمة، زيادة على شيء من بقايا الزرادشتية وآثار من الإسلام" [٢]. وإذا كانت هناك ثمة حيرة عند الباحثين تشوب مهمة تتبع جذور اليزيدية، فإن معاينة أتباعها بالعين المجردة تزيد من شائكية الخروج بخُلاصات حاسمة.

حتى من منظور عيني مجرد يشكل اليزيديون، رجالاً ونساءً، مشهدًا مربكًا للمشاهد لأنهم يبدون وكأنهم يأخذون شيئًا من هذه الجهة ويستعيرون سواه من الجهة الأخرى بضمن فسيفساء مجتمعي زاخر بالجماعات الدينية والعرقية المتنوعة. إنها "التركيبية" على أبهى صورها. يشترك اليزيديون في مناطق سكناهم مع التركمان والآشوريين والسريان والقوقاز والجورجيين والأرمن والأوكرانيين والفرس والعرب والكرد، بطبيعة الحال. أما في إقليم تمركزهم الأساس، شمال العراق، يلاحظ المرء أن رجالهم ونساءهم يرتدون بعضًا من الملابس البدوية العربية، وبضمنه أغطية الرأس البدوية، بينما تبدو النساء اليزيديات أكثر عصيانًا على التمييز عن سواهن من نساء الكرد والكلدان، ناهيك عن شيوع

السراويل الفضفاضة المتدلية التي يشارك اليزيديون فيها جيرانهم الكُرد.

لقد تركت المفاهيم الخاطئة التي شاعت عن اليزيدية بصماتها السلبية التي آلت إلى عد اليزيدية حال شاذة مشوبة بسوء الفهم وحرف التقديم درجة عد اليزيدية، كما هي حال الأديان التي سبق رصدها في هذا البحث، من "أديان المضطهدين" [٣]، إذا ما وظَّفنا اصطلاح الباحث "فيتوريو لانتيرناري"Vittorio Lanternari:

إنه لمن الخطأ بمكان أن تخص العامة اليزيديين بنظرة دونية، فتتجنب التعامل معهم نظرًا لسيادة الخرافة على حساب الحقيقة، ومنها شكوك خاطئة تفيد بأن اليزيديين يبغضون المسلمين والمسيحيين. بل لنا أن نلاحظ أن المسلمين أكثر عدائية في التعامل مع جيرانهم من اليزيديين بسبب أن بعض اليزيديين يحترف تقطير المشروبات الروحية والكحولية وتسويقها وبيعها. وليس بأقل إثارة

للملاحظة في هذا السياق، هو ذلك المفهوم الخاطئ الشائع الذي يحتضنه أتباع الأديان الأخرى كالمسلمين والمسيحيين والذي يفيد بأن لليزيديين عيونًا حسود شريرة يمكن أن توقع المصائب على رؤوس وحظوظ ضحاياها.[٤]

أما حقيقة اليزيديين الطيبة، فغالبًا ما تغمر، أما عمدًا أو جهلاً، فيكون مصيرها التغييب لأنها تغرق بما لا يحصى من الخرافات والمفاهيم الخاطئة والمنظورات الجاهزة التي تغمطهم حقهم في التعامل الاجتماعي العادل على قدم المساواة مع سواهم.

يمكن للمرء أن ينحي بلائمة الغموض والغيمية اللتين تغلّفان الدين اليزيدي على رجال الدين منهم، أي على الشيوخ والمريدين والـ"بيرية" أي السادة، بسبب عنايتهم المفرطة بالحفاظ على تقاليد وطقوس الدين بعيدًا عن أعين "الغرباء" أو عبث "الدخلاء"، بغض النظر عمّا يعتنقون، زد على ذلك حرمان الطبقات الدنيا في مجتمعهم نفسه من أن يعرفوا عن دينهم أكثر مما ينبغي. لذا تتحمل نخبة رجال الدين العبء الأكبر بقدر تعلق الأمر بما شاع خطأً عن اليزيدية وعن عادات المؤمنين بها، وهي حال لا تخلو من المخاطر بقدر تعلق الأمر بالسياسات التي تتبعها الحكومات حيالهم في الدول التي يقطنها اليزيديون. في كتابه المفيد الموسوم بـ(اليزيديون)، يذهب المؤرخ والباحث الاجتماعي السيد عبد الرزاق الحسني، مبررًا، إلى أن اليزيديين يفضلون الاستقرار في مناطق كأداء بعيدة المنال كي يحموا أنفسهم من الاعتداءات ومن الحملات العسكرية

المتعددة التي دأبت الأنظمة الحاكمة على إطلاقها من أجل تحطيم دينهم وكسبهم للإسلام. لقد أطلق ولاة الموصل العثمانيون مثل هذه الحملات العسكرية الشرسة، وهي حملات لم تزل لا تفارق ذاكرة اليزيديين.[٥]

لقد أخفقت أغلب هذه الحملات العسكرية المذكورة نظرًا لتشبث اليزيديين بدينهم وذودهم عن ديارهم وإصرارهم على عاداتهم وثقافتهم الخاصة، زد على ذلك حقيقة مفادها أن رجالهم مقاتلون جبليون أشدَّاء، فقد دلَّ قتالهم على رباطة جأش عالية وعلى حيلة وقدرة فائقة على المناورة في المواجهات العسكرية مع القوات التقليدية التي حاولت مرارًا غزو ديارهم الجبلية. تلقي هذه وسواها من الحملات العسكرية والغزوات - التي كما ذكرنا، تشنها الحكومة أو الجماعات الإثنية والدينية المجاورة ضد اليزيديين أحيانًا - الضوء على صعوبة الطبيعة الجغرافية للبِقاع التي كانوا قد انتقوها للسُكنى ولممارسة طقوسهم الروحية بسلام وحرية بعيدًا عن أعين وضوضاء الآخرين. هم يفضِّلون العيش في المناطق المعزولة التي تضمن لهم حدًّا أدنى من التماس المتكرر أو المطول مع سواهم من أتباع الأديان والجماعات الإثنية الأخرى، رغبة في الحفاظ على نقائهم المجتمعي وتقاليدهم الدينية. هذا هو سبب رفضهم أداء الخدمة العسكرية الإلزامية، تأسيسًا على أن حلاقة الذقن وتحريم مشاركة غير اليزيديين في أدواتهم وموائدهم هما من فروض دينهم.[٦]

إنهم عادة ما ينزعجون عندما تُوجَّه إليهم الأسئلة حول دينهم أو عاداتهم أو تفاصيل طقوسهم عند اختلاط المسلمين أو المسيحيين أو اليهود بهم.

تلقي هذه العناية الخاصة بعدم البوح بالكثير عن تفاصيل دينهم وبحفظه وحمايته من عبث الآخرين، الضوء على قناعة الباحثة "السيدة دراور" (التي مرَّ ذكرها في فصل المندائيين) غير الدقيقة التي تفيد بأن دين اليزيدية لا يزيد عن كونه "عبادة سرية"[٧]، كما أنها يمكن أن تلقي الضوء على خطأ آخر يفيد بأن اليزيدية إنما هي "طائفة إسلامية"[٨]. للمرء أن يحيل هذه التصويرات والتصورات الخاطئة إلى شخصية مؤسس هذه الديانة، "الشيخ عادي بن مسافر الأموي"، لأنه كان مسلمًا متصوفًا في البداية، ثم هاجر إلى نواحي شمال العراق من بلاد الشام حيث استقر هناك وباشر الإعلان عن دينه والتبشير به، مقدِّمًا نفسه رجلاً مقدسًا أو مُوحى إليه أثناء القرن الثاني عشر الميلادي. لا تجهزنا المراجع بما يكفي من المعلومات عن حياته وسيرته قبل أن يهاجر من موطنه الأصل إلى شمال العراق، درجة أن المرء يجد نفسه مضطرًا إلى الشك في حقيقة أن اسمه "الشيخ عادي بن مسافر": هل كان هذا اسمه الحقيقي أم اسمًا مستعارًا أو منتحلاً؟ أما بالنسبة لأصله السوري فإنه مستوحى من لقبه "الأموي"، وهي سلالة حُكم إسلامية لا تحظى بالشعبية في العراق. بل وأن للمرء أن يفترض أن الأكثر تسببيًا لعداء المسلمين لليزيديين هو لفظ "يزيد" الذي يشتق اسم دينهم منه، لأنه يذكِّرهم

بالخليفة الأموي الثاني الذي يحملّه المسلمون الشيعة مسؤولية قتل إمامهم الثالث، الحسين بن علي بن أبي طالب (رض)، في العراق خاصة. تدعي بعض المصادر أن اليزيديين يقدّسون الخليفة الأموي "يزيد بن معاوية"، عادين إياه تجسيدًا للشخصية المقدسة لديهم، أي شخصية السلطان إيزي أو (عزي) [٩]، وهي حال يصعب إدراكها أو ربطها بسواها من المعتقدات، حتى بضمن سياق الإيمان اليزيدي بالتجسد وبتناسخ الأرواح.

أما أخطر المفاهيم الخاطئة، فهو المفهوم الذي يفيد بأن اليزيديين إنما يعبدون الشيطان من دون الله، فيمكن تتبع علته إلى إيمانهم بأن الله قد خلق العالم ثم وضعه تحت وصاية سبعة ملائكة برئاسة كبير الملائكة الذي يمثّل "جوهر الضياء"، أي "طاووس ملكه" tawus malake، الملاك الذي طالما عدَّه اليزيديون تجسيدًا مرئيًا لمؤسس دينهم الشيخ عادي نفسه، "بوصفه الملاك طاووس" [١٠]. ولكن بغض النظر عما يعتوره هذا الموضوع من إرباك وغموض بسبب التداخلات والاختلاطات غير الواضحة، تذهب السيدة "دراور" إلى أن هذا الملاك المقدس إنما يمثل الإنسان نفسه، لأن الإنسان يمكن أن يكون فاعلاً للخير أو فاعلاً للشر في آنٍ واحد. لذا فإنها تكتب ما نصه:

(يرمز طاووس ملك، من منظور معين، للإنسان ذاته، إذ يجرب مبدأ الضياء الإلهي التجسد ظلامًا، فالظلام هو عالم المادة. لذا ينبع الشر من الإنسان ذاته، أو بالأحرى، هو ينبع من أخطائه). [١١]

ينطوي ما ورد أعلاه على الكثير من الصحة والدقة نظرًا لعكسه الطبيعة المزدوجة للإنسان الذي يرمز اليزيديون له بـ"الطاووس ملكه"، ليس فقط بوصفه تجسيدًا لـ"عادي بن مسافر"، وإنما كذلك بوصفه تجسيدًا لكل النوع الآدمي لأنه يكمن على عنصر الشر "شيطان"، وعلى عنصر الخير. والعنصر الأخير مضموم في كينونة الإنسان كذلك، فيجسِّد المركب المتكون من هذين العنصرين المتصارعين القوى التي تحكم الوجود والتي تؤشر اعتماد اليزيدية الثنائيات، ذلك التيقن الذي يقبع في جوهر فلسفة الأنظمة الدينية الثنوية. وهي الأنظمة التي ترتكن إلى الإيمان بأن الوجود إنما تتجاذبه قوى متعاكسة، فهو في جوهره يعتمد آليات الصراع: الخير معاكسًا للشر والضياء معاكسًا للظلام والأبيض معاكسًا للأسود والعالي معاكسًا للواطي، وهلم جرا على هذا المنوال عبر لا نهائية الحياة والوجود. عندما يمجِّد اليزيديون "طاووس ملكه"، فهم إنما يمجدون هذا المبدأ الفلسفي الذي يعتمده دينهم في نظرته للوجود والملكوت.

وزيادة على ما سبق ذكره، يمثل "طاووس ملكه"، بالنسبة لليزيديين، تجسيدًا للإله على الأرض، فهو ينزل إلى الأرض من عليائه في أول يوم أربعاء من شهر نيسان (أبريل) من كل عام، رمزًا للربيع ولفكرة التجدد والحيوية، فيقتنص اليزيديون هذا اليوم كمناسبة للاحتفاء بـ"طاووس ملكه" عبر تقليد الطواف، إذ يطوفون به رافعين له رمزًا اسمه "سنجق" عبر قراهم. هذا السنجق [١٢]، هو عبارة عن تمثال صغير يمثل طائرًا مصنوعًا من معدن النحاس، يحمل عاليًا وسط تعابير الفرح والاحتفال سنويًا. يحتفي اليزيديون به نظرًا لرمزيته بالكثير من الحبور والانتشاء اللذين يرافقان الرقصات الفولكورية الجماعية المعروفة بـ"الدبكة" وعلى أنغام الموسيقى مع عب الكثير من "العرق" [١٣]، وهو المشروب المسكر المحلي الانتاج. من المهم أن يلاحظ المرء أن الاحتفاء بـ"طاووس ملكه"، يعدُّ هو ذاته، احتفاءً بمؤسس ديانتهم، "الشيخ عادي" نظرًا لإيمانهم بأن روح "عادي" قد تلبست تجسيد "طاووس ملكه"، علمًا بأن الأخير، أي التمثال الصغير، يُحفظ بعناية وسرية فائقتين في موضع غير معروف يؤمه المتدينون بأقصى درجات "الإجلال" لدى رجل دين يزيدي كبير، فهو فقط من يسمح بإخراجه أمام العامة في مناسبات معينة كتلك التي مرَّ ذكرها أعلاه. لذا يعد "طاووس ملكه" تجسيدًا لحكمة التخيير، ولاختيار الخير بإرادة حقة وتفضيله على الشر. إنه عكس للاعتقاد بأن الخير هو قرين الضياء أي الشمس، التي تطرد الظلام وتمنح الحياة للوجود بأشعتها. إنه الضياء الذي يبث الحياة في النباتات

لتعتمد عليها باقي المخلوقات الحية الأخرى من أجل تواصل الحياة والوجود. لذا لا تغادر السيدة "دراور" الواقع عندما تخلص إلى أن اليزيدية إنما هي شكلٌ من أشكال الحلولية الصوفية.[١٤]

أما بالنسبة للشيخ عادي، مؤسس هذا الدين، فيصعب التيقن مما يُشاع بأنه كان مسلمًا في بداية حياته، أي قبل الإعلان عن تأسيس دينه اليزيدي، نظرًا لأن الحكاية الشائعة تشير إلى أنه قد ظهر فجأة في إقليم نينوى الذي يقطنه اليزيديون اليوم حيث بدأ عمله التبشيري بدين جديد، دين يبدو من أكثر الأديان تجسيدًا للديانات التركيبية التوفيقية، دين قوامه مزيج من عناصر صوفية وإسلامية مختلطة ببقايا مترسبة من ديانات قديمة كانت قد شاعت عبر تلك الأصقاع، من كردستان وبلاد الرافدين، كالديانات الزرادشتية واليازدانية التي بقيت آثارها كامنة، فتجاوزت اختبار الزمن وقوة مروره لتبقى ثابتة في قعر العقل الجمعي للسُكَّان المحليين منذ أقدم العصور[١٥]، عَبْر الأقاليم المترامية بين إيران والعراق قبل ظهور الإسلام.

إن المبدأ الأساس الذي ترتكن إليه عقائد الأنظمة الدينية الثنوية من هذا النمط التركيبي إنما يقوم على الإيمان بثمة قوتين أبديتين متناقضتين ومتصارعتين تتجاذبان الإنسان والعالم الذي حوله: القوة الأولى، قوامها الخير المطلق (ورمزها الضياء)؛ أما القوة الثانية، فقوامها الشر (ورمزها الظلام). يؤمن اليزيديون بالوجود الدائم لإله الخير ("خُدا" بلغتهم)، كما هي عليه حال الكُرد والفُرس القدماء، الأمر الذي حدا بالسيدة دراور إلى ملاحظة أن لفظ "خدا"

يبقى دائم التكرار على ألسنتهم، كناية عن إيمانهم بإله الخير [١٦]. ولكن، مع هذا التشبث به، هم يخافون "الشيطان" ويعون آثار شروره المدمرة على البشر لأنه يمثل مبعث الشر المطلق على نحو دائم. هاجسهم هو الوعي الوسواسي بوجود الشيطان المتواصل المرافق لحياتهم، الأمر الذي يجعلهم في رعب دائم، خشية استثارة غضبه المدمِّر. يسكن هذا الخوف اليزيديين الذين تهيمن عليهم إرادة عدم إزعاج الشيطان أو استفزازه لتجنب غضبه وحيلته، درجة أنهم يخافون تلفظ كلمة "شيطان" في كلامهم، لأنها، كما يعتقدون، كلمة يمكن أن تجلب الغضب واللعنة على رأس من ينطقها. إذا ما أراد الإنسان أن يحمي حياته ويحافظ على كيانه من الغضب واللعنة، يتوجب عليه تجنب لفظ المكونات الصوتية للفظ "اسمه"، مثل الأصوات (ش+ط)، خاصة عندما تظهر في كلمة واحدة فيحرم عليهم تلفظها، مثل ألفاظ (شط) أو (شخاط) أو (شرطة). بل إن على المرء إذا ما تلفظ مثل هذه الكلمات أمام إنسان يزيدي متدين، أن يعي بأنه قد استفز هذا اليزيدي وربما توجّب عليه أن يتوقع أي ردِّ فعلٍ انفعالي يخطر على باله.

لاحظ أن سيارات الشرطة في مناطقهم، يكتب عليها لفظ "شورتة" وليس "شرطة"، تجنبًا لمركب الصوتين /ط/ و /ش/ المشؤوم.

كما يعتقد اليزيديون بأن عنصرًا شيطانيًا يسكن بعض الخضار مثل (الخس) و(اللهانة)، لذا فإنهم يعدانهما من الخضار المحرمة، زراعةً وغذاءً. وإذا ما أرادت زوجة رجل يزيدي أن تستفزه أو تؤلمه أثناء خلاف عائلي، فإنها تعمد إلى إهانته بالقول بأن رائحة الخس تفوح من فمه، وهذه هي غاية الإساءة والاستفزاز حسب القيم الدينية اليزيدية.

لأن الشيخ عادي قد لاحظ إيجابية الإفادة من العقائد الراسبة بين سُكَّان تلك الأصقاع، أي العقائد المتبقية، آثارًا، من الديانات القديمة وفلسفاتها، فإنه قد خلص إلى الاعتقاد بتفوق أتباع دينه بصفتهم "أُمة جديدة"، تأسيسًا على مبدأ جنسي، أو "جنوسي"، يفترض دونية الأنثى مقارنة بالذكر، وهي ظاهرة يمكن ملاحظتها من خلال الكلمات التي دائمًا ما كان يكرِّرها على مسامع مريديه أثناء حياته، فقد كان يقول:

" كنتُ حاضرًا عندما كان آدم يعيش في الجنة، وعندما رمى نمرود إبراهيم في النار. كما كنت حاضرًا عندما قال لي الرب: "أنت الحاكم والسيد على الأرض". منحني الرب الرحيم سبعة كواكب أرضية مع عرش السماوات". [١٧]

قد ينطوي النص أعلاه على ثمة اعتقاد مفاده أنَّ حواء، حسب معتقداتهم، لم تُخلق مع آدم، كما تقول قصص الأديان المنزلة. من هنا نبع الاعتقاد اليزيدي، بأنهم جماعة إثنية مختلفة لأنهم ينحدرون من آدم (وليس من اقتران آدم وحواء)، وهذا اعتقاد يشاركهم به المندائيون، بقدر تعلق الأمر بالمعتقدات الأسطورية وبصعوبة تتبع أصولهما كجماعتين عرقيتين/دينيتين. ربما تلقي هذه القناعة الضوء على القدسية التي يحيط بها اليزيديون حجرًا قضيبي الشكل، مناظرًا شكله لقضيب الذكر، يوجد في أحد كهوفهم المقدسة، تتردد عليه النسوة بهدف تخصيب العاقر منهن، أو بهدف أن تحظى العوانس بفرصة زواج مناسبة، شريطة أن تتمكن صاحبة المراد، العاقر أو العانس، من احتضان ذلك الحجر كاملاً وبقوة حتى تلتقي أصابع يدها اليسرى باليمنى من الجهة الأخرى لذلك القضيب الصخري ليتحقق المراد.[١٨]

يؤمن اليزيديون أن الشيخ عادي يكمن على قوى وقدرات لا نهائية تمكنه من خلاص الأفراد الملعونين من خلال حمله أرواحهم مع أرواح الأخيار على إناء ليضعها في الفردوس الأبدي. وللمرء أن يزعم أن حياة الشيخ عادي تتطلب المزيد من البحث والإستقصاء، خاصة عبر سني شطرها المبكر، السابق لهجرته إلى شمال العراق، إضافة إلى ملاحظة شطرها الأخير الذي تناهى إلى تعمده التوحد مع نفسه لأوقات طويلة للتأمل وللتفكير، بعيدًا عن الآخرين على جبل "لالش"، هناك حيث لفظ أنفاسه الأخيرة كي

يدفن في ذات البقعة. وقد استحال قبره مزارًا يتردد عليه المؤمنون من كل حدب وصوب للتبرك.

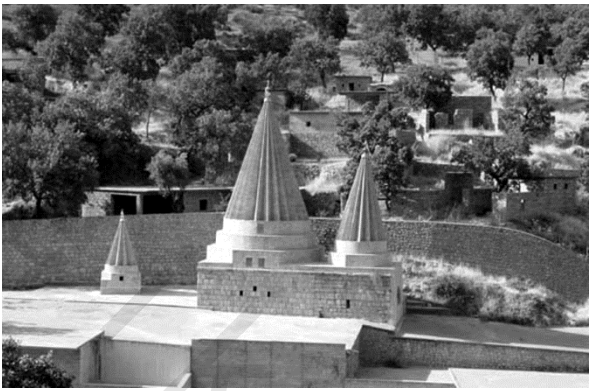

- قبر عدي بن مسافر في لالش -

وإذا كان الشيخ عادي سوية مع عدد من الشيوخ الدينيين الكبار قد صُيروا قديسين، فإن هذه الظاهرة تترادف مع النزعة الروحية القوية التي تميِّز أقوام الشرق الأوسط، وهي ذات النزعة التي قادت إلى ظاهرة "عبادة الأبطال"، إذا ما استعرنا تعابير الفيلسوف الأسكتلندي "توماس كارلايل". إن المزارات المتعددة التي يتردد عليها اليزيديون للتبرك والصلاة في أعياد ومناسبات سنوية معينة إنما تؤشِّر هذا النزوع القوي إلى تأليه مؤسس هذا الدين وتقديس عدد من أوصيائه وحُماة أتباعه من كبار الشيوخ الراحلين، خاصة وأنهم يؤمنون أن هؤلاء الشيوخ ينحدرون من عنصر إثني مختلف تمامًا عن سواهم من عامة اليزيديين، في مجتمع يزيدي قائم على

نظام الطبقات الاجتماعية المحكم، تلك الطبقات التي تشكِّل هرمًا مدرجًا قوامة البشر الذين يتوجب عليهم القبول بما كُتب عليهم من قدر المرتبة الاجتماعية، ليؤدوا أدوارهم الاجتماعية المناطة بتلك المرتبة بلا زيادة ولا نقصان. ولرجال الدين، بضمن سلم المراتبات الاجتماعية أعلاه، هرم تدرجي ثانوي خاص بهم: إذ أنه يبدأ بالقمة، أي من درجة الـ"بابا شيخ"، ثم ينحدر نزولاً إلى القعر عبر رجال الدين الأدنى مراتبًا، كالشيوخ العاديين والبيرية (من لفظ بير الذي مر ذكره في فصل أهل الحق) والقوّالين، أي الشيوخ الذين يضطلعون بتقديم المواعظ للعامة.

وعلى نحوٍ متوازٍ مع الأنظمة الدينية الشائعة في الشرق الأوسط، يقدِّس اليزيديون كتابين دينيين يعدونهما خزانتيّ عقائدهم وأساطيرهم وتاريخ دينهم، وهما:

(١) كتاب التنوير ("كتب سلوة" بلغتهم)، وهو كتاب يفترض أن يلقي الضوء على مصائرهم وأقدارهم.

(٢) الكتاب الأسود ("مشيفا رش" بلغتهم).

ولا تتوفر عن محتوياتهما تفاصيل دقيقة، إذ أنهما ليسا في متناول الفرد اليزيدي العادي، لأنهما متاحان فقط لرجال الدين فهم مخولون بالإطلاع على هذه المحتويات لأنهم من سراة القوم المسموح لهم بتعلم القراءة والكتابة، علمًا بأن العامة بقوا ممنوعين من الالتحاق بالمدارس حتى بدايات القرن الماضي، حينما بدأ يسري شيء من التغيير على عقائدهم ومفاهيمهم وتقاليدهم الدينية.

لقد بقيت القراءة والكتابة دومًا من امتيازات الأغنياء ورجال الدين فقط قبلئذ.

وكما هي عليه الحال لدى المندائيين، من بين الأقوام الرافدينية الأخرى، يؤمن اليزيديون بثمة آصرة بين عناصر الماء والنقاء والضياء، أي العناصر التي تشكِّل معاكسات لكل ما هو مظلم وملوث. لذا يعد اليزيديون ولادة الإنسان كولادة في عالم الضياء من عالم مظلم تغلفه الغوامض من كل حدب وصوب، وهي حال يمكن أن تلقي الضوء على تقليد العمادة الخاص بهم، فهم يستخدمون الماء المقدس المأخوذ من أحواض مقدسة خاصة. يمكن لهذا التقليد إلقاء الضوء على إيمانهم بتجسد الأرواح وتناسخها بعد الموت. لذا فإن الروح الشريرة، حسب عقائدهم يمكن أن "تهاجر" لتسكن في جسد بغل أو جسد أي من حيوانات الحمل الأخرى من أجل أن تعاني أعباء آثار الخطيئة، بل أنها يمكن أن تستقر في أجساد العقارب أو الضفادع، إذا كانت هذه الأرواح أكثر شرًّا.

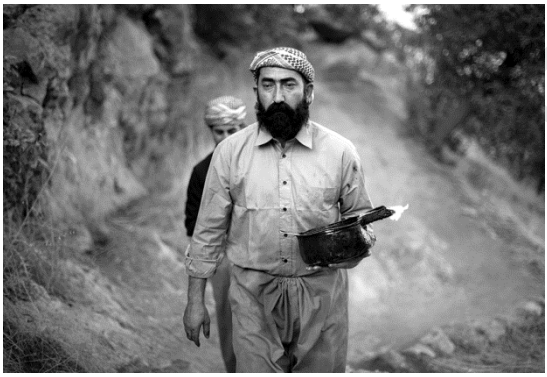

وإذا ما كانت حياة الإنسان اليزيدي تباشر بالضياء والتعميد، فانها تنتهي بظلام القبر حيث يسجى المتوفي في قبره مع ملاحظة وضع ساعديه على نحو صليب على صدره. تمر حياة اليزيدي بعدد من المحطات المهمة كالختان (ليس واجبًا دينيًا، وإنما اختيارا) والزواج (بين أتباع الدين اليزيدي فقط، باعتبار اعتقادهم أنهم هم أمة مستقلة) والموت (كما لوحظ في أعلاه). زد على ذلك كله، تحريم الزيجات العابرة للطبقات الاجتماعية في دواخل هذه البنية الاجتماعية الطبقية المحكمة.

لا ريب في أن الأفكار الخاطئة الشائعة عن اليزيديين وعن عقائدهم وممارساتهم وطقوسهم الدينية قد نبعت من السرِّية الشديدة التي يحيط بها رجال الدين والشيوخ وزعماء طائفتهم تقاليد وعقائد دينهم بسبب نوع من التحسس المفرط حيال الغرباء من أتباع الأديان الأخرى، ذلك التحسس المتوارث الذي يتفاقم أمام أي عابث أو متدخل في شؤونهم وشؤون دينهم. إن هذا الكتمان هو المسؤول الأساس عما شاع ويشاع من أساطير وتمثيلات خاطئة من النوع الذي يتناقله الغرباء ويختلقونه حول كل غامض وكل ما هو ليس واضحاً. فالغموض مسؤول عن إساءات التمثيل. حتى الـ"طاووس ملكه" الذي سبق ذكره يبقى مخفيًا عن عيون الغرباء خشية التدخل أو إثارة حب الإطلاع لدى الآخرين. بل أن ما يزيد من تعقيد غوامض هذا الدين الغريب يكمن في الرموز الدينية المحفورة على الصخور المحيطة بفتحات كهوفهم المقدسة وبأبواب مزاراتهم

الدينية، ومنها رمز "الحية"، الذي غالبًا ما يعكس فكرتيّ التجدد وعودة الحياة في عموم ثقافات بلاد الرافدين القديمة، فهو يتجسد في الأسطورة السومرية والأكدية على نحو متكرر. وترمز الحية كذلك لتشبث الإنسان البطولي بالخلود على سبيل مشاركة الآلهة القديمة سجية الأبدية. هذا التشبث الرافديني البطولي القديم بفكرة "الإنسان الخارق" Superman، أي بجلجامش، البطل السومري لأول ملحمة بطولية في تاريخ الجنس الآدمي.

obeikan.com